تصدير

بقلم دكتور مصطفى زيور

إن كتابة تصدير لكتاب يعرض قضايا التحليل النفسى وقضايا المادية الجدلية بهدف التأليف بينها تلقى صعوبات تختلف باختلاف الكاتب . فإذا كان محللا نفسيًّا — كما هو حال كاتب هذه السطور — مطلعاً على قضايا المادية الجدلية فسيختلف المنظور ومسار المناقشة عما إذا كان ماركسيًّا مطلعاً على قضايا التحليل النفسى . ويبدو أن المثل الأعلى أن يكون المرء محللا نفسيًّا ماركسيًّا معاً ، وهو ما لا أعرف أنه تحقق إلا لكتاب يعدّون على أصابع اليد الواحدة ، كما هو الحال مثلا مع « إرك فروم » « وفلهلم ريخ » . ومع ذلك يبدو أن خير ما كتب بهذا الصدد لم يتوافر لهؤلاء . ذلك أن إرك فروم اعتنق منذ هجرته إلى الولايات المتحدة ما يطلق عليه مذهب الفرويدية الجديدة، وهو مذهب ضحل —يقوم الدليل على ضحالته فى أشهر كتبه : المجتمع السليم — مرفوض من المحللين النفسيين والماركسيين جميعاً . وقد نقده نقداً صارماً الفيلسوف الماركسى : هربارت ماركيوز فى كتابه : « إروس والحضارة » . أما فلهلم ريخ فإن تطوره المؤسف فى السنوات الأخيرة من حياته أدى إلى الانصراف عنه من كلا الفريقين . ولا أعرف من المؤلفات الجادة الخليقة بالاحترام والإعجاب إلا كتاب أستاذى الراحل الطبيب وعالم النفس الفرنسى « هنرى ڤالون » : « من الفعل إلى الفكر » . حقًّا إن ڤالون لم يكن محللا نفسيًّا ، ولكنه كان منفتحاً على قضايا التحليل النفسى ، متقبلاها. ومن الحق أيضاً أنه لم يعتنق المادية الجدلية إلا فى أواخر الثلاثينات ، وقد كان تتلمذى عليه فى أوائلها . غير أن كتابه المذكور يمتاز بأنه تطبيق بارع يستند إلى الخبرة التجريبية — للمنهج المادى الجدلى فى ميدان تخصصه ، أعنى علم نفس الطفل . وهو فى ذلك يشبه ما انتهى إليه عالم الطبيعة الفرنسى المشهور : بول لانجڤان .

والآن ما الذى يدعو إلى إقامة مناظرة بين التحليل النفسى والمادية الجدلية . . تنبغى الإشارة أولا إلى أن قضايا الميدانين تؤثران منذ نحو ربع قرن تأثيراً

عميقاً على الفكر المعاصر وبخاصة فى العلوم الإنسانية . وفضلاً عن ذلك إنهما يعالجان الموضوع نفسه أعنى أحوال الإنسان وقدره المصنوع بصنعه ، ومحاولة الإمساك بزمامها وتوجيهها توجيهاً يرفع عن الإنسان شقاءه .

غير أن أهم ما يلفت النظر هو التشابه العميق بين ما قدمه لنا كل من ماركس وفرويد من حيث الكشف عما يمكن أن نطلق عليه « الشعور الزيف » وبعبارة أخرى يشترك ماركس وفرويد فى فض المبهمة . الأول فى ميدان البنيان الاقتصادى التاريخى فى المجتمع الإنسانى ، والثانى فى ميدان النفس الإنسانية بما فى ذلك تاريخ حضارتها . وبعبارة بسيطة قد عالج كل منهما ما هو « إنسانى » فالتقيا بالزيف ، وكشفا عنه على نحو عبقرى ، بالرغم من اختلاف المنظور لدى كل منهما .

لقد درج الفلاسفة منذ عهد ديكارت على الشك فى الأشياء . ولكن الشعور أو الوعى كان السند والفيصل الذى يحكم به ويستند إليه بوصفه مصدراً لليقين . ولكننا منذ كشوف ماركس وفرويد أصبحنا نرتاب فى الوعى نفسه ، وأدركنا ما يتصف به من المبهمة والمجهلة .

وقد يتساءل القارئ ما العلاقة بين التحليل النفسى وهو فن طبى يهدف إلى علاج الأمراض النفسية بناء على الكشوف التى ألقت الضوء على مجاهل النفس وما يعتلج فى أعماقها من صراع لا شعورى ، وبين الماركسية وهى مذهب اجتماعى سياسى يهدف إلى تغيير جذرى فى علاقات الإنتاج بهدف تحقيق الإنصاف بين أفراد المجتمع . سبق القول بأن التحليل النفسى والماركسية يعالجان موضوعاً واحداً : الإنسان فى حضارته وما يعانيه من ضيق وضيم واغتراب من جراء أوضاعها . ولا يظنن القارئ أن فرويد لم يتعرض لهذا الموضوع إلا فى مؤلفاته المتأخرة : « كدر فى الحضاره » و « مستقبل خدعة » وما إليهما ، وكأنه أدرك فى آخر الأمر أن ما كشف عنه من أسباب التوعك لدى الفرد هى هى ما ينغص على الناس عيشهم فى إطار حضارتهم ما سبق منها وما هو قائم . بل الصحيح أن فرويد تنبه منذ البداية إلى العلاقة الوثيقة بين ما يصدق على الفرد متوعكاً ، وما يصدق على مقومات الحضارة فى مختلف أشكالها . ونجد إرهاصات ذلك كله فى كتابه « تفسير الأحلام » الذى صدر سنة ١٩٠٠ ، والذى جاء فى أعقابه « الإبداع الأدبى وأحلام اليقظة »

(١٩٠٨) ، والطوطم والتابو (١٩١٣) و « خواطر عن الحرب وعن الموت » (١٩١٥) وغيرها . ويعلم القارئ أن حصيلة ما حاوله ماركس هو فضح العلاقة بين البناء الاقتصادى التحتانى (قوى الإنتاج) وبين البناء العلوى النفسى وما أسفر عنه ذلك من اغتراب الإنسان . ومن ثم فإن الفحص العلمى فى حقلى التحليل النفسى والماركسية ، جعل الفهم العلمى ضرباً من الهرمينوطيقا (إذا صح استخدام هذا المصطلح الأرسطى) على حد قول الفيلسوف پول ريكور . أى أن البحث عن الحقيقة ، عن المعنى العميق ، لم يعد يتجه إلى فحص المعنى الشعورى . وإنما إلى فض ألغازه فى تعبيراته المتخفية .

إن ما يرمى إليه ماركس هو تحرير « البراكسيس » من خلال فهم كامل لفعل الضرورة . ولكن هذا التحرر لا ينفصل عن إدراك فطنة واعية بالحقيقة تملك القدرة على الإطاحة بمعميات ومبهمات « الشعور الزيف » . وإن ما يهدف إليه فرويد فى حقل العلاج ، هو أن يمكن الفرد من امتلاك معنى ظل عنه غريباً فيوسع بذلك رقعة وعيه ، فيلغى اغترابه ، ويطيب نفساً بما كسب .

وتأييداً لهذه المقارنة التى عقدناها بين منظور الماركسية ومنظور التحليل النفسى ، نقدم ما كتبه إنجلز عن طبيعة الأيديولوجيا . يقول إنجلز : « إن الأيديولوجيا عملية من نتاج مفكر يتوهم أنه مدرك واع لما أنتج ، ولكنه فى واقع الأمر لا يملك إلا وعياً (شعوراً) زيفاً . ذلك أن الدوافع الحقيقية التى حفزته تظل مجهولة منه ، وإلا لما كان الأمر أمر أيديولوجيا . ومن ثم فهو يصطنع دوافع ظاهرية أو زائفة » . ولا يفوت القارئ أن لفظ مجهولة يمكن أن نستبدل به لا شعورية ، وأن لفظ ظاهرية يمكن أن نستبدل به تبريرية . فإذا فعلنا ذلك كنا نسجل قضية من قضايا التحليل النفسى المشهورة .

فإذا كان الأمر كذلك فلم كانت هذه القطيعة بين الماركسيين والمحللين النفسيين ، التى ظلت حقبة طويلة ، فكان أولئك يتهمون هؤلاء بالمثالية والبورجوازية وهى أخطر الاتهامات فى نظر الماركسيين .

ويقتضينى السياق الآن أن أذكر بعض ما قاله فرويد عن الماركسية بوصفها ضرباً من الـ Weltanschauung (نظرة إلى الكون) . يبدأ فرويد حديثه عن الماركسية

بقوله : « إننى آسف أشد الأسف لقصور معرفتى بها .... إن بحوث كارل ماركس فى البناء الاقتصادى للمجتمع وفى تأثير الأشكال المختلفة للتنظيم الاقتصادى فى كل مجالات الحياة الإنسانية قد أصبح لها اليوم نفوذ لا يجحد .... من الجلى أن قوة المذهب الماركسى لا تقوم على نظرته إلى التاريخ أو على التنبؤات المستقبلة التى يبنيها على هذه النظرة ، بل على إدراكه الواضح لفعل الظروف الاقتصادية وتأثيرها الحاسم فى الإنتاج الفكرى والفنى والخلقى للإنسان . وهكذا أميط اللثام عن طائفة بأسرها من الصلات والتتابعات العلية التى كادت تكون مجهولة إلى هذا العهد . غير أنه لا يمكن التسليم بأن الدوافع الاقتصادية هى الدوافع الوحيدة التى تحتم سلوك الناس فى المجتمع . فمما لا مراء فيه أن مختلف الأفراد والشعوب والسلالات ، لايكون سلوكها واحداً فى نفس الظروف الاقتصادية . وهذه حقيقة تبرهن بذاتها على أن العامل الاقتصادى لا يمكن أن يكون العامل الحاسم الوحيد . بل المحال أن نفهم كيف يغض النظر عن العوامل النفسية عندما يكون الأمر أمر استجابات كائنات بشرية حية ، لأن هذه العوامل لا تساهم فى إقامة الظروف الاقتصادية فحسب ، بل تحدد كذلك أفعال الإنسان ، والإنسان لا يستطيع أن يعمل ، حتى وهو يمتثل لهذه الظروف ، إلا بدافع من نزعاته الغريزية كغريزة المحافظة على النفس ، وحب العدوان ، والحاجة إلى الحب ، هذا إلى ما لديه من دافع إلى التماس اللذة وتفادى الألم . ولقد أكدنا .. الدور الذى يقوم به الأنا الأعلى ، تلك السلطة التى تمثل تقاليد الماضى ومثله ، والتى تقاوم الضغط الذى تفرضه الظروف الاقتصادية الجديدة ، لمدة من الزمن . وأخيراً يجب ألا ننسى أن جمهرة الإنسانية تغشاها — وهى خاضعة للظروف الاقتصادية — عملية تطور ثقافى يسميها البعض بالحضارة ، وهى عملية تتأثر من دون شك بجميع العوامل الأخرى ، لكنها مستقلة على التحقيق عنها من حيث نشأتها . فهى شبيهة بعملية عضوية ، وتقدر بذاتها على التأثير فى العوامل الأخرى . فهى تبعد الغرائز عن أهدافها الأصلية ، وتحمل الناس على أن يثوروا على ما كانوا يبيحونه ويحتملونه من قبل . ويبدو فوق هذا أن التوطد المطرد للروح العلمية إحدى نتائجها الأساسية . فمن أراد أن يجعل من المذهب الماركسى علماً حقيقياً من العلوم الاجتماعية

تعين عليه أن يجلو الدور الذى يقوم به كل واحد من هذه العوامل المختلفة تفصيلا، أى يتعين عليه أن يدرس الاستعداد الجبلّى العام للإنسان ، وتفاوته تبعاً للسلالة ، وتحوره بفضل الثقافة ، وكيف يتأثر بالظروف الاجتماعية المتغيرة وأوجه النشاط المهنى وطرق كسب الرزق ، وكيف تتضافر هذه العوامل المختلفة بعضها مع بعض أو يتنافر بعضها مع بعض » .

يبين من هذه الفقرات أن فرويد يقدر بحوث ماركس فى البناء الاقتصادى للمجتمع ويعدها اكتشافات لها خطرها فى إلقاء الضوء على « طائفة بأسرها من الصلات والتتابعات العلية التى كادت تكون مجهولة إلى هذا العهد » ، وأن الأهمية القصوى لاكتشافات ماركس ترجع إلى « إدراكه الواضح لفعل الظروف الاقتصادية وتأثيرها الحاسم فى الإنتاج الفكرى والفنى والخلقى للإنسان» ، ولكنه يأخذ على ماركس إغفاله التام لسيكولوجية الإنسان بما هو إنسان ، تحفزه دوافع متناقضة ، تتصارع فى معظم الوقت فى غفلة عن شعوره ، تحت ضغط مبدأ الواقع فى نضاله مع مبدأ اللذة . ذلك أن كشوف التحليل النفسى تقيم الدليل الحاسم على أن الإنسان يتصف بثنائية الوجدان ambivalence يحب ويكره معاً ، بل يريد الحياة ويريد الموت ، فضلا عن أنه يتصف بثنائية المعنى ambiguity يرى ويميل إلى الشئ ونقيضه ، أى الموجب والسالب ، حتى اتسم اللوغوس فى بعض كيانه بالأضداد ، تعبر الكلمة عن الشئ أو نقيضه . بل إن السلب negativity (وهو بلغة فرويد غريزة الموت وبلغة ماركس نقيض الأطروحة) يبدو لنا اليوم مكوناً أساسيًّا فى أحوال الإنسان ، يلعب دوراً هائلاً فى الوجود والعدم جميعاً منذ أن نبه إلى ذلك هيجل فى تصدير كتابه « فنومنولوجيا العقل» مسجلا « القدرة الهائلة للسلب ، طاقة الفكر للأنا الخالص ... إن العقل يظفر بحقيقته بشرط واحد هو العثور على نفسه فى التمزق المطلق .. وما العقل إلا هذه القدرة تقوى على مواجهة السلب وجهاً لوجه ، وكذلك تقوى على أن تسكن بجواره » .

حقًّا إن ماركس يخترق الصعاب فى محاولة يوتوبية ، من خلال جماع الأطروحة فى إطار كشوفه فى حقل الاقتصاد الاجتماعى . ومن الطريف أن نذكر أن فرويد كان ماديًّا جدليًّا بمعنى خاص عندما سجل فى حقل كشوفه الصراع بين الرغبة

والدفاع ، (وهما طاقات بيولوجية أى مادية) والتسوية الموفقة بينهما (جماع الأطروحة) فتكون الصحة، أو التسوية غير الموفقة فيكون المرض . ومن الحق أن فرويد كان أقرب إلى التشاؤم فى نظرته إلى الكون Weltanschanung بناء على ما أسفرت عنه لا بحوثه الإكلينيكية فحسب بل فحصه لمقومات الحضارة وأحوال الإنسان فيها من ألوان المعاناة والمشقة والشقاء ، كنتيجة حتمية لدوافع التدمير (غريزة الموت) : تدمير الذات وتدمير الآخرين .

ومن الإنصاف لماركس أن نقرر أن ما يأخذه فرويد عليه من إغفال دوافع الإنسان الغريزية يمكن الإجابة عنه بقول ماركس: « إننى لست ماركسياً»، وهو يعنى بذلك من غير شك أن باب الاجتهاد لم يقفل ولا ينبغى له أن يقفل . ومن الإنصاف للماركسيين أن نذكر أن بعض فلاسفتهم المعاصرين فطنوا لذلك وأخص بالذكر هربارت ماركيوز وبخاصة فى كتابه « إروس والحضارة » ، وفيه نراه ينطلق من قضايا التحليل النفسى الأساسية ثم يحاول تطعيماً مستمداً من القضايا الماركسية وبخاصة فى مفهومى الكبت ومبدأ الواقع ، بحيث يتضخم الكبت ويتحول إلى ما أطلق عليه « الكبت الزائد » over-repression كما أدخل مفهوم مبدأ العائد فى إطار مبدأ الواقع منتهياً إلى حل يبدو مشرقاً . ويعدّ هذا الكتاب الذى نقدمه إلى القارئ محاولة أخرى فى طريق التكامل بين التحليل النفسى والماركسية .

مقدمة المؤلف

كتبت هذا الكتاب لحث الماركسيين على دراسة التحليل النفسى ، ولدفع المحللين النفسانيين لمعرفة الماركسية ، معتقداً من ناحية أخرى أن الجمهور الكبير من حقه أن يعرف هذين النظامين فى مجموعهما .

وكتابى هذا محاولة لإيضاح العلاقات بين الحياة الذاتية للإنسان ، كما وصفها فرويد ، وبين العالم الموضوعى للتركيبات الاقتصادية والاجتماعية التى قامت الماركسية بدراسة قوانين تطورها الأساسية . فالرسالة الأساسية لهذا الكتاب هى أن النظرت الفرويدية والماركسية تكون محاولات مختلفة للوصول إلى معرفة الطبيعة الإنسانية . وهذه المحاولات ليست متناقضة بل متكاملة وتثرى كل منها الأخرى .

ويمكن أن نعبر عن وحدة هذه النظريات بالطريقة الآتية : كل من الفرويدية والماركسية ترى الإنسان خاضعاً لقوى لا معقولة تعرقل تطور وجوده وتعوقه . فبالنسبة للماركسيين تنتمى هذه القوى المعرقلة إلى العالم الاقتصادى والاجتماعى ، عالم لم يوفق إلى إنماء نفسه بنفس قدر نمو الإمكانيات التى أتاحها له التقدم التكنيكى والعلمى . أما بالنسبة لتلاميذ فرويد فإن اللامعقولية لدى الناس Irrationalité des hommes تجد أصلها فى استمرار طرق التفكير والتصرف التى تتسم بها الطفولة وبقاء هذه الطرق حتى بعد البلوغ . فالصفات اللامعقولة التى يتسم بها العالم الاجتماعى الخارجى ليست إلا صورة للاعقلانية الحياة الداخلية النفسية ، وهاتان الحالتان ، إنسان لا معقول فى عالم لا معقول مرتبطتان بطريقة لا يمكن فصلها .

فأما بالنسبة للماركسيين فإن أهمية آراء فرويد قد تضاعفت بعد أن تكشفت وحشية النظام الستالينى . إن حركة مدعمة بالأفكار الفرويدية تكون أكثر يقظة أمام أخطار « الستالينية » ، ما كانت تجد نفسها لا تملك الدفاع عن نفسها . وقد أكدت فى كتابى السابق « فرويد وماركس » [1] أن هناك خطورة

(١) Reuben Osborn : Marx et et Freud, Gollancz, 1937.

من العمى السياسى الذى سمح بظهور شخص مثل ستالين . واليوم أعود إلى مهمتى وهى إقناع الماركسيين بضرورة إدخال نظرية التحليل النفسى فى مذهبهم .

وأما بالنسبة لغير الماركسيين وكذلك بالنسبة لأعداء الماركسية ، فأقول لهم الآتى : إن الماركسية مذهب ملايين من الأشخاص ، مذهب يلهم سياسة حكومات كثير من الدول . فالجهل به أو الإلمام السيئ به يمكن أن يسفر عنه هلاك الإنسانية . إن التهديد بتدمير نووى يرزح علينا جميعاً وأكبر الظن أن هذا التدمير ربما يمهد له سوء التفاهم أو الشكوك المبنية على الجهل لا على النيات الشريرة للحكومات. حقًّا إن القول بأن تبديد هذا الجهل كاف لإبعاد هذا التهديد يعدّ ضرباً من المغالاة فى التفاؤل . ومع ذلك فإن التزود بمعلومات أفضل يعد خطوة نحو عالم متحرر من التهديد بتدمير نووى ويصبح فى الإمكان أن ينشأ فيه تعايش سلمى ، بشرط أن يعرف هذا العالم كيف يحتفظ باليقظة بصفة مستمرة .

إن نظريات فرويد وماركس لاتزال تسيطر على عصرنا ، وهى تشحذ البحث والفكر فى مجالات عديدة وبرغم أن أسسها كانت موضع فيض من الانتقادات والهجمات فإنها ما زالت واقعية أكثر من أى وقت مضى لأنها تحوى حقائق تهمنا .

وقد حاولت فى هذا المؤلف أن أصف هذه النظريات بطريقة أمينة وموضوعية، وقد بدا لى أنه من الضرورى أن أسرد أقوال فرويد وماركس وأن أتركهما ، بقدر الإمكان يتكلمان بنفسيهما .

وفى اعتقادى أنه بغير معرفة ما قاله وما كتبه هذان الرجلان العظيمان لا يمكننا فهم هذا العالم الحديث الذى هو عالمنا .